جليات المنهج البنيوي في تفكير عبد القاهر الجرجاني.

مزايتي مريم
طالبة باحثة
بجامعة أبي بكر بلقايد تلمسان

مقدمة:

إن ربط صلة الماضي بالحاضر مظهر من مظاهر الامتداد الطبيعي لمسيرة الحياة العلمية في آفاق الكون، والتراث العربي قد قدم على طول هذا الامتداد التاريخي للإنسانية نمطا من المعرفة متميزا أسهم في بلورة كثير من المفاهيم على كافة المستويات، وبالخصوص في مجال الدرس اللغوي؛ إذ نجد بالتمحيص والتدقيق كثير من هذه المفاهيم ترتبط بواقع حياتنا العلمية على المستوى العالمي، فضلا عن الإقليمي منها. وقد حاول علماؤنا المحدثون التنقيب عن هذه المشتركات العلمية وربطها بواقع الدرس اللغوي الحديث ولعلهم وفقوا إلى حد كبير، ولم يقتصر البحث عن الإسقاط الحتمي لهذه المفاهيم، بل إن منها ما كان له السبق، ولم يتوصل إليه الدرس الحديث إلا حديثا.ولعله من المبادئ والقوانين الشيء الكثير مما لم ينفض عنه.

وعبد القاهر الجرجاني أحد أعلام هذا الفكر الإنساني الذي قدم لنا نمطا فريدا عن معالجة العقل الإسلامي والعربي لمسائل وقضايا لغوية تنم عن واقع استشرافي سبق بكثير مرحلة وجوده، فقد عاش وولد سنة **400**هـ بمدينة جرجان الفارسية وقد كان فقيها متكلما، وأشعريا عقيدة، وشافعيا مذهبا، ونحويا بيانيا، ومفسرا شاعرا، وقد توفي في سنة **471**هـ. ترك مصنفات قليلة العدد كثيرة المغزى والمعنى تبين مدى استعابه للقضايا إذا هو باشرها بفكر وقاد ومنهج استدلالي عقلي.

البنيوية:

يعتبر أول ظهور للبنيوية في نهاية الخمسينات وبداية الستينات من القرن العشرين كمنهج واتجاه جديد، صاحبه ظهور شخصيات وأعمال فكرية تعبّر عنه، كليفي ستراوس « Lévis Strauss» في الأنتروبولوجيا، ورومان جاكبسون «Roman Jakobson» في اللسانيات، وفوكو «Foucault» وألتوسير «Althusser» وصيباغ «Sebage» في الفلسفة والإبستيمولوجيا، وأخيرا رولان بارت «Rolan Bart» وغولدمان «Goldman» في النقد الأدبي[1].

ولكن رغم الحماسة الإعلامية والظهور المكثف في ميادين عدة، جوبهت البنيوية بانتقادات، أبرزها. تحديدها مفاهيميا كمنهج أم نظرية، بمعنى: هل هي أداة علمية أم نظرية فلسفية، وإيديولوجيا كباقي النظريات الأخرى.

يعتبر ريمون بودون «R.Baudon» ممن رفضوا اعتبارها منهجا مركزا على الجانب النظري بقوله:"إن البنيوية منظورا أكثر منها طريقة"[2]، ذلك أن الثورة المنهجية التي تدّعي البنيوية القيام بها كانت حسب زعمه موجودة سابقا في العلوم الطبيعية والاجتماعية وإذا كان ثمة ثورة، فهي تتمثل بالأحرى في تطبيق رؤية استعملتها تقليديا علوم مثل: علم الاجتماع والاقتصاد[3]

والرأي ذاته حمله فرانسوا شاتلى «F.Chatelet» الذى يرى أنه ليس ثمّة منهج بنيوي. لأنّ البنيوية هي أشبه ما تكون بحالة ذهنية مشتركة لابد من اكتشاف السمات المميزة لها[4].

أما عن مؤسسي البنيوية في مجال الأنثروبولوجيا و على رأسهم كلود ليفي ستراوس «Claude levis strauss» فيرى أن البنيوية "لم تهتم بأن تعلن عن فلسفة جديدة قدر اهتمامها أن تظهر عجز المفاهيم الفلسفية القائمة.

وذلك في ضوء المعرفة المتجمعة عن طريق علوم اللسان"[5] فهي بذلك منهج لا نظرية. يسعى إلى دراسة الظاهرة الاجتماعية بوصفها واقعة علمية تقبل التحليل والصياغة الرياضية الدقيقة.

وهي حسب بياجي«Biaget» أسلوب فنّي متخصص يقتضي التزامات عقلية معينة. يقول:" لقد كان للمنهج الذي تمثّله البنيوية تاريخ طويل يشكل جزءا من تاريخ العالم"[6]، فالبنيوية بذلك توجّه علمي منهجي داخل العلوم الطبيعية والإنسانية يهدف إلى تحليل البنيات الأساسية للموضوعات ويستعمل في بحثه طرائق التقصي المستعملة في الرياضيات والفيزياء والعلوم الطبيعية الأخرى.

من هنا كانت ميزة هذا المنهج في تركيزه على وصف الحالة الآنية للأشياء[7]، وقد كان لمجلة الفكر العربي نفس التوجّه؛ حيث افتتحت عددها الخاص بالبنيوية وعلم الأناسة بقولها:" والحقيقة. فإن البنيوية ليست مذهبا إيديولوجيا مباشرا ...ولكنها جملة أساليب في البحث الاجتماعي، والرؤية الفكرية تريد أن تعكس منعطفا ثقافيا تاريخيا، وكذلك التغيرات النوعية الخطيرة الّتي أتت بها التطبيقات الإلكترونية في حقل المعلوماتية، وما رافق ذلك من دعوات ملحة للخلاص من عصر سيادة الإيديولوجيات الكليانية والتّحول إلى دراسة البنى الواقعية للظاهرة الثقافية والاجتماعية دون ما حاجة إلى تفسيرها بالنظريات الشمولية [8]، ولا يمكن الإنكار أن البنيوية أثارت ثورة علمية تقنية وأتت بخطوات أساسية تمثلت في:

– نقد المفاهيم السابقة والقائمة في ميدان العلوم الإنسانية.

– إعلانها لمنهج يتكون من جملة من الأساليب في البحث الاجتماعي والفكري.

– دراسة البنية الواقعية للظاهرة الثقافية دونما حاجة إلى تفسيرها بالنظريات الشمولية[9].

التيارات الفكرية لما قبل البنيوية:

أول ما بدأت الدراسات اللغوية كانت مركزة على النحو، متخذة من المنطق معيارا لها، حيث كانت تقوم على "وضع القواعد للتمييز بين الصحيح وغير الصحيح، من صيغ الكلام"[10]، ثم جاءت مرحلة الفيلولوجيا «Philologie» أو ما عرف بفقه اللغة على يد فريديريك أغسطس وولف «Auguste wolf frederic» عام 1777، وكانت مهمته تتمثل في ضبط "النصوص وتأويلها والتعليق عليها"[11]، ثم جاء فرانز بوب « Franz Bopp» بالدراسات التاريخية المقارنة، أو ما يسمى بالنحو المقارن، وذلك من خلال كتابه «نظام السنسكريتية الصرفي وعلاقته باللغات اليونانية واللاتينية والفارسية والألمانية»، وكان ذلك عام 1816، وبعد مرور قرن كامل ظهر كتاب: دروس في الألسنية العامة «Cours de linguistique génerale» الذي أثار ثورة على كثير من المفاهيم التي كانت سائدة آنذاك، وأعطى منظورا جديدا في كيفية التعامل مع اللغة، ودراستها كواقع قائم بذاته، فهو لا يقوم على التصرف ببنية اللغة، بل على تحديدها ووصفها[12]، وهو منهج يشبه إلى حدّ كبير المنهج التجريبي في العلوم الطبيعية، يقول ميشال زكريا:" إن هذه الخصائص التي تتصف بها الدراسة اللغوية، تجعل من الألسنية علما حديثا، يعتمد على العموم والتجريد في صياغة القواعد، ويتبنى لغة كلية قائمة على رموز متعاقبة تفسر المعطيات اللغوية، وتساهم بصورة مباشرة في تعميم اللغة واختبارها"[13].

مفهوم البنية:

تعني في الاصطلاح اللغوي بناء متكامل ومترابط الأجزاء أو ترتيب أجزاء مختلفة في شيء واحد[14]، وهي منبثقة من أصل يوناني «Structure» التي تعني البناء أو الطريقة، التي يقوم عليها بناء ما، ليشمل المعنى فيما بعد وضع الأجزاء في حيز ما من وجهة النظر المعمارية، وتشير المعاجم الأجنبية إلى فن العمارة المستخدم لهذه العبارة

أو لهذا المفهوم خلال القرن السابع عشر[15]، ليستعملها بعد ذلك الفيلسوف كانط «Kant» بمعنى بنية الفكر، وبقيت كلمة البنية تحمل دائما معنى الكيفية التي يقوم عليها بناء ليتغير معناها بعد ذلك كما أشرت.

وفي مجال اللسانيات ارتبط مفهوم البنية بمفهوم النسق والنظام، فـ: دي سوسير الذي فجّر تيار البنيوية لم يستعمل كلمة بنية، وإنما استعمل مفهوم النسق، وقد كان أول تثبيت للكلمة عام 1928، حين استعملها ووظّفها تربوتسكوي ليعرّف مجال الفونام "بواسطة تحديد مكانه في التنظيم البيولوجي ولا يمكن أن يكون ذلك ممكنا إلا إذا أخذنا بعين الاعتبار بنية هذا التنظيم"[16]، ويطلق مفهوم النسق على كلّ منظم بحيث تكون أجزاءه وعناصره التي يتألف منها خاضعة لقانون موجّه[17].

أما بالمفهوم العلمي فهو "مجموعة من العناصر ذات التبعية المتبادلة والمرتبطة فيما بينها بشكل يؤدي تغيّر أحدهما إلى تغيير الأخرى، وبالتالي تبدّل المجموعة ككل"[18]، وما يجمع بين النسق والبنية أنهما يعتمدان على الكليّة والعلاقات والثبات والتوازن بين العلاقات والدراسة التزامنية؛ فالنسق والبنية يقومان على الدراسة التزامنية وذلك في مقابل التعاقب[19]، وقد كان لكلمتي النسق والنظام حضور عند الجرجاني الذي كان لأعماله عند بعض المحدثين من الدارسين العرب رأي فيه، مع كونهم وصفوا التراث اللغوي العربي بالمعيارية وتخلف النزعة الوصفية عنه، وهو ما ينفيه د محمد عبد الدايم في كتابه: « النظرية اللغوية في التراث العربي » فهو لا يتصور تدافع المعيارية والوصفية؛ إذ لا ترد"المعايير أو القوانين أو القواعد العامة في دراسة اللغة أو غيرها من العلوم إلا بعد وصف دقيق ومنظم لها وأية معايير لا تنبني على وصف صحيح تكون خطأ، أو تكون على الأقل عرضة لذلك على نحو كبير.كما أن الوصف الذي لا ينتهي بمعايير.يبقي الظاهرة بلا دراسة حقيقية؛ إذ ستخلو الدراسة من الكليات أو القواعد العامة التفصيلية[20] ، وقد رفض بعض المستشرقين وصف التراث اللغوي العربي بالمعيارية، ورأوا أنه يقدّم نموذجا ثالثا للدرس اللغوي، هو النموذج التفسيري. فالمهمة النهائية للنحوي أن يشرح لماذا نتكلم بالكيفية التي نتكلم بها.من الواضح أنه لا يمكن أن يخضع مفهوم مهمة النحوي هذا للوصفية، بل يمكن أن يكون من الخطأ عدّ النحاة معياريين أيضا، والمصطلح الوحيد الذي يغطي مفهومهم لوظيفة الدرس اللغوي هو التفسيرية [21].

كما يشير بعض المحدثين إلى أن التراث اللغوي العربي كان تصنيفيا تحليليا على حد سواء، بمعنى أنه قام بالتصنيف والتحليل معا، على أن التحليل قد استلزم في الوقت نفسه قدرا غير قليل من التفسير الذي يسيطر بشكل بارز أيضا على درسنا اللغوي وهو ما نلمسه لدى لغوييننا وعلماءنا العرب القدامى، ونخص بالذكر أحد عباقرة القرن الخامس الهجري، وهو عبد القاهر الجرجاني لنقف على بعض المفاهيم والمشكلات اللغوية التي عالجها وبخاصة تلك التي تعلقت بالمنهج البنيوي وأتباعه.

تجليات المنهج البنيوي في فكر عبد القاهر الجرجاني:

لعل من النقاط البارزة في المنهج البنيوي هو اعتبار اللغة نظاما ونسقا، فالأول يتمثل في البناء العام في التركيب اللغوي الخاضع لقواعد اللغة بالنظرة الشمولية لطبيعة اللغة في اصطلاحها لدى المتكلمين بها. والنسق يتمثل في وجود السياق الذي تجري فيه اللغة [22] ويوضح دي سوسير «De Saussur » أن من طبيعة البنية أنها تتألف من عناصر يكون من شأن أي تحويل يعرض للواحد منها أن يحدث تحوّلا في باقي العناصر الأخرى[23] ، فرغم أن اللغة في حد ذاتها مجموعة من العناصر إلا أن هذه العناصر تفترض نظاما ونسقا يجعل منها صورة «Forme» لا جوهرا «Substance» وعليه فاللغة في رأي دي سوسير هي نسق عضوي منظم من العلامات «Signes» والتي يقصد بها " الكل المتألف من الدال والمدلول [24]، وهو ما تحدّث عنه الجرجاني طويلا تحت مسمى النظم وفرد له أبوابا عدة في كتابه الدّلائل.

والـنظم لـغـة : التأليف وأصله: جمع الخرز بعضه ببعض إلى سلك واحد، ويدعى النظام، وكلّ شيء قرنته بآخر أو ضممت بعضه إلى بعض فقد نظمته، ومنه نظم الشعر وتنظيمه [25]، وعليه فقد كان منطلق الجرجاني ومرتكزه هو كيفية تأليف الكلم بطريقة محكمة العرى، متناسقة الشكل، لكنه أضاف مادة نظمية أخرى هي آي القرآن الكريم، التي رأى فيها النموذج المثالي لأي نظم لغوي دفعه كما دفع كل المنشغلين ببلاغة التعبير العربي إلى عجز الإنسان الأعجمي بله العربي عن مجاراة هذا النظم أو جزء يسير منه [26]. فالجرجاني وإن لم يوظف مصطلح النظام كما هو الحال نالنسبة لدي سوسير، لكنه استعمل مصطلحات تعبر عن المعنى ذاته كالنظم والتأليف .

1– إنّ حديث دي سوسير عن اللغة كنظام قاده إلى نقطة مهمة وهي التفريق بين اللغة كتقنين اجتماعي ومجموعة من القواعد[27]، وبين الكلام كفعل فردي، وبالتالي اللغة هي نتاج ينطبع به الفرد، بينما الكلام هو في المقابل عمل إرادي يقوم به الفرد[28].

وفي تحديد وظيفة اللغة يرى دي سوسير أن وظيفتها الأصلية هي التبليغ والاتّصال فهي ظاهرة اجتماعية. الهدف منها إعلام السامع بخبر يجهله، ولم يغفل الجرجاني عن هذه الفكرة، واعتبر أنّ اللّغة وضعت من أجل التواصل ذاكرا عناصرها من خبر ومخبر به، "واعلم أن معاني الكلم كلّها معان لا تتصور إلا فيما بين شيئين، والأصل الأول هو الخبر، وإذا أحكمت العلم بهذا المعنى فيه عرفته في الجميع، ومن الثابت في العقول والقائم في النفوس أنه لا يكون خبر حتى يكون مخبر به ومخبر عنه، لأنّه ينقسم إلى إثبات ونفي، والإثبات يقتضي مثبتا ومثبتا له، والنفي يقتضي منفيا ومنفيا عنه)[29]، ثم يردف حديثه عن المخبر والمخبر به قائلا:"وجملة الأمر أن الخبر وجميع الكلام معان ينشئها الإنسان في نفسه، ويصرفها في فكره، ويناجي بها قلبه، ويراجع فيها عقله، وتوصف بأنها مقاصد وأغراض"[30]، فالمتكلم ببثه لذلك الخبر يحمل رسالة يريد إيصالها للسامع وهو ما عناه الجرجاني بالمقاصد والأغراض .

إن ما يميز الفرد هو حسن توظيفه لتلك المفردات سواء كان ذلك في شكل كلام أو رسالة، وهو ما عناه الجرجاني بقوله:"واعلم أنّا لم نوجب المزية من أجل العلم بأنفس الفروق والوجوه فنستند إلى اللغة، ولكنّا أوجبناها للعلم بمواضعها وما ينبغي أن يصنع فيها، فليس الفضل للعلم بأن (الواو) للجمع و(الفاء) للتعقيب بعد تراخ و(ثم) شرط التراخي و(إن) لكذا و(إذا) لكذا، ولكن لأن يتأتى لك إذا نظمت وألفت رسالة أن تحسن التخير وأن تعرف لكلّ من ذلك موضعه [31]، فالجرجاني يميز بين اللغة كرصيد لغوي يشترك فيه جميع أفراد المجتمع، وبين الكلام الذي هو حسن التخير والقدرة على تعليق الكلم بعضها ببعض، للخروج بمعان تسمو بها الأفهام وتكسب صاحبها الفضل والمزية "فالألفاظ المفردة التي هي أوضاع اللغة لم توضع لتعرف معانيها في أنفسها ولكن لأن يضم بعضها إلى بعض فيعرف فيما بينها فوائد[32].

الدّال والمدلول: Le signifiant/ Le signifié

لقد حدد البنيويون العلامة على أنها اتحاد لصورة سمعية «Image acoustique» وهي الدّال « Le signifiant » بتمثل ذهني أو تصور «Concept» وهو المدلول «Le signifié» . وأن العلامة هي ذلك الكل المتألف من دال ومدلول[33]، فهما شبيهان بوجهين لعملة واحد .

وقد اعتبر دي سوسير « D.saussure » أن العلاقة بين الدال والمدلول اعتباطية «Arbitraire» لأن "الرابط الجامع بين الدال والمدلول هو اعتباطي، وببساطة أكثر يمكن القول أيضا أن العلامة الألسنية اعتباطية [34]، فكلمة طاولة كان من الممكن أن تطلق على أي شيء آخر غير ذلك الشكل المستطيل أو المستدير الذي

له أرجل، فاللغة حسب دي سوسير "عاجزة جذريا عن الدفاع عن نفسها ضد العوامل التي تنقل من لحظة إلى أخرى العلاقة بين الدال والمدلول. إن هذه لإحدى نتائج اعتباطية العلامة [35].

قبل دي سوسير وأتباعه بعقود عدة، ناقش الجرجاني قضية اللفظ والمعنى . وكيف أن العلاقة بينهما اصطلاحية متفق عليها "فإذا قلنا مثلا: خط أحسن مما وشاه الربيع... وإنما وازن ذلك وازن أشكال الخط التي جعلت أمارات لأجراس الحروف المسموعة، في أنه لا يتصور أن يكون العقل اقتضى اختصاص كل شكل منها بما اختص به دون أن يكون ذلك لاصطلاح وقع، وتواضع اتفق. ولو كان كذلك لم تختلف مواضعات في الألفاظ والخطوط و لكانت اللغات واحدة[36]، فالألفاظ ليس لها معنى قائم في العقل، كما أن الدال ليس خاضعا لمحض اختيار المتكلم بدليل تعدد اللغات واللهجات ويدعّم الجرجاني رأيه بقوله: "إن نظم الحروف هو تواليها في النطق فقط، وليس نظمها بمقتضى عن معنى ...فلو أن واضع اللغة كان قد قال (ربض) مكان (ضرب) لما كان في ذلك ما يؤدي إلى فساد [37].

النظام والعلائقية: Système et relationnelles

من المبادئ التي نادت بها البنيوية أيضا قضية العلاقات بين الوحدات اللسانية؛ فالمنهج البنيوي يرى أنه "من أكبر الأوهام أن نعتبر عنصرا ما مجرد التحام لصوت بمفهوم. فتعريفنا له على هذا النحو يعزله عن النظام الذي ينتمي إليه، ويبعث على الظن أنه يمكن لنا البدء – في الدراسة اللسانية – بالعناصر وبناء النظام بجمعنا لها.في حين أنه ينبغي خلافا لذلك أن ننطلق من الكل المتضامن،لنحصل بواسطة التحليل على العناصر التي يتضمنها"[38]؛فالمفردات تتحد ضمن نسق معين يكسبها دلالات،يقول يلمسلف«**Louis yhelmslev**»:" إنّه لا يكفي أن نقول إنّ الوحدة اللغوية لا تعرف إلا بغيرها من الوحدات؛ بل يجب أن نقول إنها مكونة من مجموع علاقاتها بباقي الوحدات[39].

وهو ما انفك الجرجاني ينادي به ويدعو إلى التفطن إلى أهميته في نظرية النظم تحت ما أسماه التعليق [ف] "معلوم أن ليس النظم سوى تعليق الكلم بعضها ببعض، وجعل بعضها بسبب من بعض، والكلم ثلاث: اسم وفعل وحرف وللتعلق فيما بينها طرق معلومة وهو لا يعدو ثلاثة أقسام: تعلق اسم باسم، وتعلق اسم بفعل، وتعلق حرف بهما"[40].

ويرفض الجرجاني أن يكون هناك نظم في الحروف، وإنما مدار الأمر على الكلمات بما ينجم عنها وعن موقعها من أسباب الجمال والتأثير، بما تخلفه من تناسق في دلالاتها وتلاق في معانيها على الصورة التي يستلزمها العقل، فنجده يقف عند بيت ابن المعتز ليؤكّد مزية الحسن في النظم . يقول: "مثال ذلك أن تنظر إلى بيت ابن المعتز:

وَإِنِّي عَلَى إِشْفَاقِ عَينِي مِنَ العِدَى لَتُجْمَحُ مِنِّي نَظْرَةٌ ثُمَّ أَطرُقُ.

فترى أن هذه الطلاوة وهذا الظرف إنما هو لأن جعل النظر يجمح، وليس هو لذلك، بل لأن قال في أول البيت: وإني حتى دخل اللام في قوله لتجمح، ثم قوله مني، ثم لأن قال: نظرة ولم يقل النظر مثلا، ثم لمكان ثم في قوله: ثم أطرق وللطيفة أخرى نصرت هذه اللطائف وهي اعتراضه بين اسم إن وخبرها بقوله: على إشفاق عيني من العدى"[41]، وهذا الأسلوب يتبعه الجرجاني في كثير من تحليلاته ولا سيما في تقليبات الوجوه الإعرابية وبعض الآيات القرآنية فهو لا يكتفي بإعطاء المعنى العام، و إنّما يحرص على تحديد مواضع الجمال والحسن في كل عنصر من عناصر الشاهد.

ويعني عبد القاهر بالتعليق، الوسائط التي تربط بين الألفاظ وتعبر عنها المعاني النحوية، حيث تعتمد عملية إنتاج الكلام عنده على أربعة عناصر هي: النظم، البناء، الترتيب، التعليق[42]؛ فالإنسان عندما يسمع جملة ما لا

يركّز فكره على عناصرها بقدر ما يشدّه الفحوى العام للجملة ككلّ؛ فالجرجاني تفطن في وقت مبكر إلى فكرة العلاقات وأنواعها المتعددة، وكذا علاقة المعنى بالمبنى، وهو ما يعرف اليوم بالنظرية النسقية أو الجلوسيماتيك «Glossematiqe » التي تعتبر استمرارا للاتجاه البنيوي في جانبه المتعلق بالنظام والنسق والعلائقية.

الكلية والجزئية Tous et partie

تحدث عن مبدأ الكلية والجزئية كلود ليفي ستراوس «**Claude Levi-Strauss**» وتلميذه لوسيان صيباغ «**Lucien Sébage** » الذي اعتبر أن الكلية ما هي إلا نسق من الوحدات، لذلك فإنها تتساوى والنسق في نظره، وهذا نظرا لما يوفّره النسق من نظرة كلّية وأسبقية الكلّ على الأجزاء(43)، وما يجمع بين النسق والبنية أنهما يعتمدان على الكلية والعلاقات والثبات والتوازن بين العلاقات.

إنّ المقولة الأساسية في المنظور البنيوي هي ليست مقولة الكينونة بل مقولة العلاقة والأطروحة المركزية للبنيوية هي توكيد أسبقية العلاقة على الكينونة، وأولوية الكلّ على الأجزاء، فالعنصر لا معنى له ولا قوام إلا بعقدة العلاقات المكوّنة له ولا سبيل إلى تعريف الوحدات إلا بعلاقاتها فهي أشكال لا جواهر(44)؛ وهو ما تبناه مؤسسو مدرسة علم النفس الجشطلت «**Gestalt Theorie**» التي تعدّ إحدى الروافد الأساسية للبنيوية بزعامة كل من ماكس فريثمر «**Max Wertheimer** » وكورت كوفكا«**KurtKoffka** » و فانجن كوهلر « **Woffegeny Kohler** » بما دعت إليه من أولوية إدراك الكلّ ورفض الذرّية«**Atomisme** »، وأسبقية الكلّ على الأجزاء؛ يقول بياجي:"والحال كما في المجال تخضع العناصر دوما للكلّ، وأي تعديل محلي يسبب تبديلا في المجموع، فإن القانون الأوّل للجملات (الكليات «Totalité») المدركة ليس فقط أنه يوجد خصائص الكلّ بما هو كلّ، وأن القيمة الكمية للكلّ لا تساوي قيمة مجموع الأجزاء (45).

وقد كان الجرجاني سبّاقا في تحديد هذه الفكرة، حيث نجده يؤكد على أنّه يجب" أن تتحد أجزاء الكلام ويدخل بعضها في بعض ويشتد ارتباط ثان منها بأول، وأن يحتاج في الجملة إلى أن تضعها في النفس وضعا واحدا، وأن يكون حالك فيها حال الباني يضع بيمينه ههنا في حال ما يضع بيساره(46)، تماما كاللوحة التي يرسمها الفنان " وإنّما سبيل هذه المعاني سبيل الأصباغ التي تُعمل منها الصور والنقوش، فكما أنّك ترى الرجل قد تهدّى في الأصباغ التي عمل منها الصورة والنقش في ثوبه الذي نسج إلى ضرب من التخير والتدبر في أنفس الأصباغ،ومواقعها ومقاديرها وكيفية مزجه لها وترتيبه إياها إلى ما لم يتهدّ إليه صاحبه، فجاء نقشه من أجل ذلك أعجب وصورته أغرب، كذلك حال الشاعر والشاعر في توخيه معاني النحو، ووجوهه التي علمت أنها محصول النظم"(47).

ويقول في موضع آخر: "واعلم أن من الكلام ما أنت ترى المزية في نظمه والحسن، كالأجزاء من الصبغ تتلاحق، وينظم بعضها إلى بعض حتى تكثر في العين، فأنت لذلك لا تكبر شأن صاحبه، ولا تقضي له بالحذق والأستاذية وسعة الذرع والمنة حتى تستوفي القطعة وتأتي على عدة أبيات"(48)؛ فالجرجاني قد تفطن في وقت مبكر إلى فكرة التضام والتركيب وما ينشأ عنهما من علاقات يحكمها نظام خاص.

ويقرر أن فكرة العلاقات تنطوي على حركة خلق مستمرة في اللغة؛"...فإذا قلنا في لفظة اشتعل من قوله تعالى:﴿ قال رب إني وهن العظم مني و اشتعل الرأس شيبا ﴾(49)، إنها في أعلى مرتبة من الفصاحة، لم نوجب لها تلك الفصاحة لها وحدها ولكن موصولا بها الرأس معرّفا بالألف واللام ومقرونا إليها الشيب منكرا منصوبا"(50)، فبلاغة الآية لم تتأت لها من الألفاظ منفردة، ولكن لكونها موصولة ببعضها، ومعلقا معناها بمعنى ما يليها أو ما يتقدّمها.

التاريخية والآنية:Synchronique, Diachronique

ومن القضايا التي جاء بها دي سوسير، وسار عليها البنيويون من بعده تفريقه بين التاريخي والآني و قد ترجم هذان المصطلحان ترجمات مختلفة في العربية، من ذلك الوصف والتزمن والتزامن بالنسبة إلى المصطلح الأول، والتاريخي والتطوري، والزمني والتعاقبي، والعمودي و الدياكروني بالنسبة إلى المصطلح الثاني[51]؛ فاللغة قبل دي سوسير كانت تدرس حسب تطورها من مرحلة إلى أخرى، بمعنى أن العلماء قديما كانوا يحرصون على وصف تطور اللغات، فعارض دي سوسير هذا المنهج واقترح أن تدرس اللغة على أساس ثابت ليس للزمن فيه أيّ مدخل فالتزمن هو " زمن حركة العناصر فيما بينها في البنية.تتحرك العناصر في زمن واحد وهو زمن نظامها، فإذا كان استمرار النظام يفترض استمرار البنية وثبات نسقها فإن التزامن يرتبط بهذا الثبات الذي يشكل حالة، أي: يرتبط بما هو متكون، وليس بما هو في مرحلة التكون، بما هو مكتمل وليس بما لم يكتمل، بما هو بنية وليس بما سيصير بنية"[52].

ويعتبر"التحليل البنيوي هو التحليل الأساسي لأنه تحليل نسقي، وبه تتمكن من معرفة الشيء، فهو يتعلق بالمستوى المفاهيمي «La conceptualisation»، في حين أن التاريخي لا يدرس إلا التغيير والظاهر من الأشياء[53]، وقد مثّل دي سوسير للتفريق بين التزامني والتاريخي؛ بلعبة الشطرنج ذلك " أن كلّ ضربة في لعبة الشطرنج لا تحرك إلا قطعة واحدة، وكذلك في اللّغة. إنّ التغييرات لاتصيب إلا عناصر معزولة(...) وليس لمن تابع اللعبة بكاملها أي ميزة على الفضولي الذي يراقب منافعها في الوقت الحرج، ومن العبث تماما لوصف هذه اللعبة التذكر بما حدث لثوان عشر خلت، وهذا كله ينطبق على اللغة ويجسد التمييز الجذري بين التزمّني والتزامني .إنّ الكلام لا يعمل أبدا إلا في حالة لغوية، وليس للتغييرات التي تتدخل بين الحالات أية مكانة"[54].

– ولعل هذا ما سار عليه الجرجاني في دراسته لمبادئ النظم فقد كان يدرس أمورا تتعلق باللغة في زمنه حيث اعتبر أن إنتاج الكلام يمرّ بأربعة مراحل : النظم والبناء والترتيب والتعليق كما مرّ معنا، وهي كلّها قضايا تدخل في البناء الداخلي للغة، ويعني بالنظم نظم المعاني النحوية في النفس، وما يندرج تحتها .

الخاتمة

إن ما انتهي إليه البحث حول هذه القضايا يؤكد أن ربط التراث العربي بواقع الدرس اللغوي الحديث له ما يبرره علميا وتاريخيا، فهو من جهة حتمية تاريخية تؤكد على أنه لا يمكن قطع جذوره والانطلاق من واقع جديد، وبالتالي دعوى رفضه هي دعوى وهمية لا تستند إلى دليل يثبت شرعيتها التاريخية، وإننا لم نجد حقيقة علمية استندت إلى فراغ لتثبت وجود فرضياتها، بل ما كان لها وجود إذا لم تعد إلى الواقع الذي أمدّها بالملاحظة التي بنت منها تلك الفرضيات.

لقد بينت البنيوية سواء على مستوى المنهجي أو الفكري عن مرحلة فكرية متميزة في تاريخ الدرس اللغوي العالمي أفضى إلى طريق جديد تبلورت أفكار العالم من خلاله بشكل لم يكن أن يظهر عليه لو لم تكن، وبالتالي أسهمت بشكل واضح وعميق في صنع رجل جديد يعبر عن طموحاته الفكرية والمستقبلية؛ فتوصل إلى الطائرة والسيارة والباخرة والصاروخ وغيرها من المنتجات.

لقد تجلت بشكل واضح مبادئ وأفكار الجرجاني حول الدرس اللغوي من خلال نظرية النظم التي أرسى قواعدها والتي لها صلة كبيرة بما آل إليه الدرس اللغوي العالمي.

الهوامش

1- زواوي بغوره، **المنهج البنيوي(بحث في الأصول والمبادئ والتطبيقات)**، دار الهدى، الجزائر، ط**1**، **2001**، ص/**12**.

2- ريمون بودون، **النوذجيات والطرائق الرياضية في الاتجاهات الرئيسية في العلوم الاجتماعية والإنسانية**، تر/جماعة من الأساتذة، اليونسكو، مطبعة جامعة دمشق، مجلة**03**، ص/**48**.

3- ريمون بودون وبوريكو، **المعجم النقدي لعلم الاجتماع**، تر/سليم حداد، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر، ط**1**، **1986**، ص/**04**.

4- إبراهيم زكريا، **مشكلة البنية**، مكتبة مصر، ب.د، ص/**24**.

5- أحمد القصير، **منهجية علم الإجتماع بين الوظيفة الماركسية والبنيوية**، الهيئة المصرية العامة للكتاب، **1985**، ص/**46**.

6- بياجي، **البنيوية**، تر/عارف منمنة، بشير أوبيري، منشورات عويدات، ط**1**، **1971**، ص/**08**.

7-.Frolov, dictionaire philosophique, Ed ,Progrés,1985, p/493.

8- **الفكر العربي المعاصر**"مجلة شهرية"، يصدرها:مركز الإنماء القومي، بيروت، لبنان، ع**7**، **الافتتاحية**.

9- زواوي بغورة، **المنهج البنيوي**، ص/**14**.

10- فرديناند دي سوسير، **دروس في الألسنية العامة**، تر/محمد القرماوي و آخرون، الدار العربية للكتاب، تونس، **1982**، ص/**08**.

11– المرجع نفسه، ص/**08**.

12– ينظر: فرديناند دي سوسير، **دروس في الألسنية العامة**، ص/**09**.

13– ميشال زكريا، **الألسنية علم اللغة الحديث، المبادئ والأعلام**، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر، ط**2**، **1985**، ص/**134**.

14– عبده الحلو، **معجم المصطلحات الفلسفية**، مكتبة لبنان، بيروت، لبنان، **1994**، ط**1**، ص/**164**.

15– زواوي بغورة، **المنهج البنيوي**، ص/**68**.

16- ميشال زكريا، **الألسنية علم اللغة الحديث(المبادئ والأعلام)**، ص/**64**.

17- Armond Cuvillier, Nouveau vocabulaire philosophique, p/183.

18- ريمون بودون وبوريكو، **المعجم النقدي لعلم الاجتماع**، ص/**565**.

19- Pierre durharcout, Le systémisme, la pensée, p/43.

20– محمد عبد العزيز عبد الدايم، **النظرية اللغوية في التراث العربي**، دار السلام، القاهرة، ط**1**، **2006**، ص/**63**.

21– ينظر: المرجع نفسه، ص/**63**.

22– محمد عباس، **الأبعاد الإبداعية في منهج عبد القاهر الجرجاني(دراسة مقارنة)**، دار الفكر، دمشق، **1999**، ص/**16**.

23– فرديناند دي سوسير، **محاضرات في الألسنية العامة**، تر/يوسف غازي، المؤسسة الجزائرية للطباعة، **1986**، ص/**20–21**.

24– إبراهيم زكريا، **مشكلة البنية**، ص/**49**.

25– ابن منظور، **لسان العرب**، **13/578**، مادة: نظم.

26- عبد القاهر الجرجاني، **دلائل الإعجاز في علم المعاني**، تح/ياسين الأيوبي، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، **2003**، ص/**27–28**.

27– إبراهيم زكريا ، **مشكلة البنية**، ص/**48**.

28– ميشال زكريا، **الألسنية (علم اللغة الحديث) المبادىء والأعلام** ، ص/**43**.

29– عبد القاهر الجرجاني، **دلائل الإعجاز في علم المعاني**، ص/**486**.

30– عبد القاهر الجرجاني، **دلائل الإعجاز في علم المعاني**، ص/**487**.

31– المصدر نفسه: ص/**488**.

32– المصدر نفسه: ص/**495**.

33– فردينان دي سوسير، **محاضرات في الألسنية العامة**، ترجمة يوسف غازي، المؤسسة الجزائرية للطباعة، الجزائر، ص/**97–98**.

34 – المرجع نفسه: ص/**89**.

35– المرجع نفسه: ص/**98**.

36– عبد القاهر الجرجاني، **أسرار البلاغة في علم البيان**، تعليق: محمد رشيد رضا، دار المعرفة، بيروت، لبنان، ط**1**، **2002**، ص/**332**.

37 – المصدر نفسه: ص/**30**.

38– رفيق بن حمودة، **الوصفية مفهومها ونظامها في النظريات اللسانية**، دار محمد علي، تونس، ط**1**، **2004**، ص/**82**.

39– كريم زكي حسام الدين، **أصول تراثية في علم اللغة**، مكتبة الأنجلو مصرية، ط**2**، القاهرة، **1985**، ص/**60**.

40– عبد القاهر الجرجاني، **دلائل الإعجاز في علم المعاني**، ص/**57**.

41– المصدر نفسه: ص/**37**.

42– ينظر: زكي حسام الدين، **أصول تراثة في علم اللغة**، ص/**61**.

43– Lucien Sébage , Marxisme et structuralisme, p/88.

44–روجيه غارودي، **البنيوية (فلسفة موت الإنسان)**، تر/جورج طرابيشي، دار الطليعة، بيروت، لبنان، ط**3**، ص/**13**.

45– بياجي، **البنيوية**، ص/**48**.

46– عبد القاهر الجرجاني، **دلائل الإعجاز في علم المعاني**، ص/**138**.

47– عبد القاهر الجرجاني، **دلائل الإعجاز في علم المعاني**، ص/**132–133**.

48– المصدر نفسه: ص/**133**.

49– مريم:[**04**].

50– عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز في علم المعاني، ص/**382**.

51– ينظر: زواوي بغوره، **المنهج البنيوي**، ص/**126**.

52– يمنى العيد، **في معرفة النص(دراسات في النقد الأدبي)**، منشورات دار الحياة الجديدة، بيروت، لبنان، ط**3**، **1985**، ص/**33**.

53– بياجي، **البنيوية**، ص/**102**.

54– دي سوسير، **محاضرات في الألسنية العامة**، تر/يوسف غازي، ص/**110–111**.